

عزيرة

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ عبد المغنى على حسين

— هل السيدة موجودة ؟

الخدام — أية سيدة ؟

الآنسة — ...

الخدام — من حضرتك ؟

الآنسة — ...

فتردد الرجل برهة ثم تركها وخف

إلى الداخل فتاب حيناً ثم عاد فدعاها

إلى الدخول . ومشى أمامها على طنفسة بنفسجية

في ردهة صقيلة تكاد حوائطها تضيء ولو لم ينفثها

مصباح ، وأدخلها حجرة رحيبة يشيع فيها ضياء

هادئ وردي اللون جميل ، وجلست الآنسة فنامت

في تحمل وحرير

وخرج الخدام موصداً الباب وراءه . وبعد حين

سمت الآنسة وقع أقدام مسرعة ، وفتح الخدام

الباب إلى أقصى اتساعه ووقف متمسكاً به في احترام .

وخطرت إلى الحجرة ربة القصر ، سيدة تصف

في العمر ، قد ضمت الحسن من أطرافه مجلوبه وغير

مجلوبه ، جمعت الأثونة الكاملة الناصحة والمقل الراجح

المثقف ، في عينيها سيال حنان ، وفي فمها كثر

حجة ، يتقدمها أريج كأنه نفع من جنات الخلود

جلست السيدة والآنسة متقابلتين . قالت السيدة

بعد سكوت : « خيراً يا عزيزتى ؟ » قالت الآنسة

في تكرار وعتار « علمت أنكم ... ياسيدتى ...

بحاجة إلى فتاة متعلمة لتربية الأطفال ... فجت ...

أطلب الخدمة ... فنظرت إليها السيدة في دهشة

وقالت : « من أنباك هذا ؟ » قالت الآنسة في ارتباك

ظاهر : « ... عرفته ... »

كان للسيدة أطفال قامت على تربيتهم إلى اليوم

بنفسها دون استعانة بمرليات ، فقد ارتأت ألا تمهد

في أحد الأحياء الترفة بمدينة القاهرة ، وفي

طريق أقفرت من المسارة في ليلة من ليالي الشتاء ،

مشت آنسة بحيفة العود ، شاحبة اللون ، تلبس على

عينيها عوينات وتحمل بيمينها حقيبة ثياب ، يبدو

عليها الإعياء الشديد ، وتنظر أمامها في شبه ذهول

ووقفت الآنسة فجأة والتفتت نحو مبنى أبيض

من طابقين ومشت إلى باب سوره بخطى وثيدة

ومدت يداً نحيلة فمالحت الباب الحديدى فطاوعها

وانفتح ، وأسفر عن روضة بديعة التنسيق . مشت

الآنسة إلى درج من الرخام الأملس ، على جانبيه

صفان من أصص الرياحين . وتوقفت حائرة وهمت

أن تعود ثم عدلت ، ومضت ترقى الدرج في بطء

شديد كأنما تجر بقدميها طن حديد ، ووقفت أمام

باب نغم عريض قد من أعمق البلور وازدان بإطارات

لجينية . ومدت يداً صرناجفة إلى ضاغطة عاجية

فستها فأزّ الجرس وتلا الأزيز وقع أقدام خفيفة ،

ثم انفتح الباب وأطل منه خادم نوبى في قفطانه

الناصح ، وحزامه القانى ، وخفه المقوف

تفرس الخدام في الطارقة المجهولة ووقف برهة

صامتاً وأرتج على الآنسة فوقفت هى أيضاً صامته

ثم تملكث نفسها وقالت :

بل تقول إنها تعرف ... ١١ « قال البك : « أدخلني على هذه الزائرة إذا سمحت » فأرسلت في استدعائها . وأقبلت الفتاة وجلة صفراء ، غيهاها البك متلطفاً ودعاها للجلوس . ثم قال بصوته الجهوري : « من قال لك أننا بحاجة إلى مربية ؟ » قالت الأنسة : « هذا ياسيدي يحتاج إلى شرح ، وأنا متعبة جداً الآن ، وستعرفون ذلك مني بعد استخدامي » فنظر إليها البك بارتياح . قال : « أتعرفين أحداً من خدم هذا المنزل ؟ » قالت : « لا » فنظر إليها بارتياح أشد .

وسكت قليلاً ثم قال : « هل سبق أن اشتغلت مربية ؟ » قالت : « لا » قال : « أتعرفين أحداً يمكن أن يعرفك إلينا ؟ » قالت : « لا » قال : « اسمي يا آنسة ! لا يمكننا أن نستخدم شخصاً لا نعرفه ، ولم يقدمه إلينا شخص معروف أو جهة معروفة .. متأسفاً . » ودار بكرسيه ليواجه أوراقه

فنهضت الفتاة واقفة ، واغزورت عينها ، وعمت نحو الباب . ثم توقفت وقالت : « أيمكنني ياسادتي أن أبيت هنا الليلة ؟ » فنظر البك محرجاً ثم قال : « أليس لك مسكن ؟ » . قالت : « لقد طردني أخي » وأجهشت بالبكاء . قال البك : « من هو أخوك ؟ » فلم تجب . قال : « أليس منك نقود ؟ » فلم تجب . فأخرج من جيبه نقوداً ومد يده قائلاً : « خذي هذه واقضي الليلة في فندق ... و ... تعالى إلى في الفندق ، وأنا أنظر في أمرك » . فأبت الفتاة أن تأخذ النقود وغادرت الحجرة

عندئذ نادى سيدة الدار قائلة : « لإدريس ؟ » ، فجاء الخادم النوبي . قالت : « لا تدع الزائرة تخرج ... أدخلها حجرة الاستقبال ... أغلق الباب » . ثم التفتت إلى قرينها وقالت : « ماهذه القسوة يا عزيزي !

إلى غيرها بأول واجباتها وأسمى وظائفها . ولكن حدث أن دعيت للاشتراك في جمعيات نسوية قلبت دأبي الجهاد في ميدان النفع العام . ولم يكن ذلك لي البدأ ليشتغلها عن أطفالها ، أو يستنقذ من وقتها إلا يسيراً . ولكن نشاطها الاجتماعي نما واتسب ، وصار يشغل من وقتها بضع ساعات في أكثر الأيام تضطر فيها إلى ترك بنيتها في رعاية خادمت جاهلات . لذلك رغبت في استخدام مربية متممة لتتقيها بعناية وتشرف على عملها ما استطاعت .

أما موضع الدهشة فهو أن هذه الرغبة لم تخطر ببالها إلا يوم أمس ، ولا يعلم بها أحد سوى قرينها الذي لم تفتحها فيها إلا ليلة أمس ، ولم يتفقا بعد على التنفيذ . فمن أين جاء الفتاة علمها ؟ ! تكررت السيدة على الأنسة السؤال ، ولجت الأنسة في الارتباك .

قالت السيدة : « اسمحي لي ... برهة ... » ثم غادرت الحجرة ، ودخلت على قرينها في حجرة مكتبه ، وهو مكب على أوراق يستعرضها ، فقد كان مديراً لشركة هندسية وزعيماً اقتصادياً كبيراً .

قالت : « عزيزي ! ... هل أعلنت عن حاجتنا إلى مربية ؟ » قال : « لا » قالت : « ألم تخاطب أحداً في هذا الشأن ؟ » قال : « لا » قالت : « شيء غريب ! ! » قال : « ماذا ؟ ! ! » فروت له حديث الفتاة .

فتبسم البك وقال : « لا بد أنك حدثت أحداً في هذا الأمر ولا تذكرين » فهزت رأسها بالنفي المؤكد ، وكان البك يعرف أن قرينته تعني دائماً ما تقول .

قال البك : « لعل الأنسة طرقت بابنا مصادفة للسؤال عن عمل » قالت : « إنها لم تسأل ... »

جثت السيدة بجوار الأنسة تقلب فيها وتجس نبضها ، ووقف البك لا يفعل شيئاً . بل لقد خطر له أن الأمر كله رواية مدبرة وهذا فصل منها . قال إدريس : هل أدعو الإسعاف ياسيدي الباشا ؟ . و (الباشا) هو اللقب الذي اعتاد إدريس أن يمنحه لسيدة . فلم يجبه سيده بشيء ، وأشارت إليه سيدة أن احملها ، ونقلوها إلى حجرة نوم ، وطفقت السيدة تسعفها بما في مقدورها دون أن تفتيق

قال إدريس : « هل أدعو الإسعاف ياسيدي الهانم » . قالت سيدة : « لا... بل استدع الدكتور فلان ... بالتليفون ... أسرع ... »

وحضر الطبيب ، فلما فحص المريضة هز رأسه في باس ، ثم طفق يعالجها بالحقن والأشربة القوية والنهات والتدليك وقتاً طويلاً دون أن تفتيق . قال الطبيب : « لا أملك ياسادتي أن أمكث أكثر من ذلك ، ولكن أرى المريضة بحاجة إلى عملية فنية متواصلة مما لا يتيسر إلا في مستشفى ، وحيث أنها زائرة مجهولة لكم فالأرى عندي أن تنقل إلى قصر العيني بواسطة الإسعاف »

فتقدم إدريس ليلتق الأمر باستدعاء الإسعاف . ولكن الطبيب مضى بقول « غير أني أصارحك القول بأن نقلها شديد الخطر على حياتها ، والحل الآخر هو أن أذهب أنا ، وأبث إليكم بمرضة مزودة بما يلزم من التعليمات والأدوية فتنهروا عليها حتى الصباح » قالت السيدة : « ليسكن ذلك يادكتور » وذهب الطبيب ، وجاءت الممرضة .

وهم السيدان بالذهاب إلى الفراش فقالت الممرضة « أرجو ياسيدي الهانم أن يكون أحد الخدم على مقربة مني طوال الليل ، فقد أحتاج بعض أشياء » قالت

فتاة ضعيفة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الثياب ، مشردة في هذه الليلة الباردة ، تهيب بنا أن تؤويها ، فندفع بها إلى الشارع ولدينا سعة لبيت عشر مثلها ؟ » قال قريبتها : « مهلاً يا عزيزتي الأترين في أمر هذه الفتاة ما يدعو إلى الريبة ؟ نحن لا نعرف من أمرها شيئاً ألبتة ، وهي تأتي أن تقول أي شيء عن أمرها ، وكل احتمال بشأنها جائز عندي . وحتى لو صدق ما قالت من أن أخاها طردها فأكبر الظن أنها أنت أصراً إداً حمل أخاها على طردها في هذه الساعة من الليل »

قالت : « قد يكون شيء من ذلك . ولكن ألا يجوز أن الفتاة سليمة النية ؟ »

قال : « هذا جائز أيضاً . ولذا قدمت إليها نقوداً لتأوى إلى فندق ، ودعوتها للعود في الغد لأتلف أمرها في فسحة النهار » . قالت : « قلبي يحدثنى أن هذه الفتاة تستأهل العطف . إن لي حاسة سادسة تمكنني من الحكم على الأشخاص حكماً صحيحاً دون استدلال منطقي » . فتبسم البك وقال : « أنا يا عزيزتي لا أعرف شيئاً عن هذه الحاسة السادسة ، وليس لي إلا خمس حواس فقط بعضها في غاية البلادة وليس لماجز مثلى إلا التمويل على النطق والمقول . أنا لا أرتاح مطلقاً لبيت هذه الفتاة هنا الليلة »

وفي هذه اللحظة انبث من الردهة صوت رضى ثم طرقت باب الحجرة بلهفة ، وفتحها الخادم إدريس قبل أن يؤذن له ، وصاح : « النجدة ياسيدي ... الزائرة سقطت في الردهة منسجياً عليها »

فنهض السيدان وخفا إلى الردهة . ومشى إدريس في إثرها يقول : « دعوتها إلى حجرة الاستقبال فأبت ، وظلت واقفة ، ثم سقطت هكذا »

وخبزة وضع الباشا قدحه في الطبق قائلاً :
« تذكرت ... تذكرت تماماً ... أتعرف يا سيدي
البك فلاناً الأديب الشاعر الذي توفي منذ بضع
سنتين ؟ ... جاء إلى عيادتي ذلك الرجل الفاضل رحمة
الله عليه ، منذ نحو عشرة أعوام ومعه ابنة له في نحو
الخامسة عشرة ، وقال إنها مصابة بمرض عصبي ،
ففحصتها ، فلم أجد بها مرضاً عصبياً ، بل وجدت
ضعفاً عاماً فقط ، وعالجتها حتى شفيت ، وكان اسم
الفتاة عذرية ، وهي هذه بعينها ، فقط كانت تلبس
على عينيها عوينات » فأشار رب الدار إلى عويناتها
وكانت على نضد بجوار الفراش

وتمعجب الجميع من هذه المصادفة

قال البك : « وما الذي حمل أباه على الظن بأن
مرضها عصبي ؟ » قال الباشا : « سألته في ذلك ،
فقال إنها تذهل أحياناً ، ثم يبدو كأنما حجب الغيب
تكشفت أمامها ، فتقول مثلاً : إن فلاناً قريننا في
مكان كذا يعمل كيت وكيت ، أو ترشدنا إلى شيء
نبحث عنه ، أو تنصحنا في بعض الأمور » قال :
« فطلأنت الرجل وأفهمته أن مرضها قد زال ،
أما هذه الحال فلا خوف منها وهي طبيعية »

قال البك مندهشاً : « ... طبيعية ! »

قال الباشا : « نعم ، هي خاصة نفسية معروفة ،
تتجلى واضحة في بعض حالات النوم الغنطيسي ،
وتنشأ ذاتية عند بعض الناس ، ويمكن إرهابها
بالتصوف ، وقد عرفت في كل المصور ، وبلغت
أوجها في الأنبياء »

قال البك : « اغفر تطفلي يا باشا ولكني بحاجة
إلى زيادة إيضاح »

قال الباشا : « أنت تعرف يا سيدي البك أن
ماندركه بجواسنا الخمس وبالأجهزة العلمية التي اخترعت

المهام : إدرينس ! إنهم مع السيدة إلى الصباح ،
وأنزلنا ما قد يلزم » ثم انصرفت .

ومضى إدرينس مهموماً ، فجاء بكرسيه الخشبي
ووضعه على باب الحجرة ، وهو يزجر بلهجته النوبية
قائلاً : « ليلة طويلة بتاعتو . چاي منين البلاوى دى »
وأصبح الصباح فبادرت ربة الدار بالسؤال عن
المریضة . قالت المرضة : « إنها كما هي ، ولكنها
تنهت بضع دقائق أثناء الليل ، فأردت أن أحدثها
فلم أجد ما أقول إلا السؤال عن اسمها ، فقالت إن
اسمها عذرية ، وهو اسم لم أسمع به قبل اليوم يا سيدي
المهام » .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع بحجرة المريضة
ربا الدار ، والطبيب . قال الطبيب : « إنى متحير
في مرض هذه الأنسة ، وأرى عرضها على فلان باشا »
وأسمى نظامياً مشهوراً ، وأستاذاً كبيراً . فوافق
ربة الدار على استدعاء الباشا ، وأصرت عليه .

وجاء الباشا ، فلما فحص المريضة قال : « هبوط
عام ، ولكنه ليس خطيراً ، وسأصف لها دواءً أعتقد
أنه سيسفيها » وبينما هو يكتب الدواء رنا إلى الأنسة
وقال : « لقد رأيت هذه السحنة مرة ، ولكني
لا أذكر متى ولا أين » وأتم وصف الدواء ، ثم سأل
عن اسم المريضة فقالوا : « عذرية » قال رب الدار
« اسم غريب يا سعادة الباشا » قال الباشا : « نعم
غريب ، ولكن الأغرب منه أني سمعته مرة ورأيت
هذه السحنة مرة ، ولكني لا أذكر متى ولا أين »
وظفقي يفرك جبهته مكرراً « متى ؟ أين ؟ ! »

ثم قال « لا أذكر » ونهض مستأذناً في الخروج .
ورجاء رب الدار أن يتناول القهوة ، وكان
الخادم قادمًا بها ، ثم جلسا يتحدثان في
شئون عامة .

أخي « ومضت تقول : « لما توفي أبواي كنت في مرحلة التلميم الثانوي ، وكان أخي قد نال شهادة عالية وألحق بوظيفة حكومية هامة ، ولم يترك والداي أي مال ، فانقطعت عن الدرس ، وعشت من مال أخي في منزله .. ثم وسوس الشيطان لأخي فبدأ يستغل سلطة وظيفته في الحصول على منافع مادية ، وأحسست إحساساً خفياً بأن الرزق غير نقي ، وكان والدي منذ وفاته يتمثل لي في بعض غفواتي وأشاهدته مشاهدة أشد وضوحاً من مشاهدات اليقظة ، وجاءني أبي يوماً فقال : « نبهني أخاك إلى سوء المصير الذي ينتحدر إليه . إنه سيفلت من بطش القانون في حياته الدنيا ، وهذا من سوء حظاه ، فالويل الذي ينتظره في أخراه لا يوصف »

قالت : « فأبلغت ذلك لأخي حرصاً على صالحه ولكنه غضب ، وحقد عليّ حقداً شديداً ، وتغيرت معاملته لي . إلى أن كان فجر اليوم الذي جئتكم فيه فتمثل لي أبي وأخذ بيدي ، وقال : « تعالي معي » ثم أحسست أننا ننتقل ، وإذا بنا نلحق في أجواء منمشة ، وأتوار بهيجة ، ونشرف على رياض ناضرة وأهجار صافية ، ومساكن طيبة ، ومشاهد لا تصور جمالها ريشة أي فنان ، ولا تنساي إليها أحلام أي شاعر ، وثة رجال ونساء كلهم في ميمة الصبا ، وعلى أقصى غاية الجمال . قال أبي : « هنا الفردوس ، وإلى هنا يأتي كل من قضى حياته الدنيا عاملاً لإسماد البشر ، ساعياً بنفسه وبهم إلى التساي . إلى أقيم هنا يا ابنتي ، وما كنت أحلم أن جهودي التواضعة تستحق عشر ممشار هذا الأجر » قلت : « يا أبي هذا العالم حقيق محسوس ، وهو موجود في سما ، الوجود ، فما بالناس على الأرض ينظرون فلا يراه ؟ » قال : « إنه في الأثير . إن كل أشياء هذا الكون

في مدى قرنين أو ثلاثة ، لا بعد قطرة في محيط هذا الوجود ، فاعلم ياسيدي أن في الناس شواذ يستطيحون الحس بيمض ما لا ندرکه بالحواس ولا بالأجهزة العلمية المعروفة حتى الآن ، كأنما وهب هؤلاء الناس حاسة سادسة أو امتداداً في حواسهم الخمس »

قال البك : « إن قولاً كهذا من عالم كبير مثلك ياسيدي الباشا يفتح الباب واسماً أمام الدجالين والشعوذين » قال الباشا : « إنني أترك على هذا مع الأسف الشديد ، فادعاء هذه الخواص للتفرير بالجمهور أمر ميسور ، والذين يرتقون من هذا السبيل في مجموعهم يحتالون أديعاء ، ولا حيلة إلا أن يبطش بهم القانون بلا استثناء » قال البك : « ألا ترى أن الأولى إنكار هذه الخواص كلية لقطع السبيل على الدجالين ؟ » قال الباشا : « قد يكون ذلك ولكن الحقائق الثابتة لا تنكر ، ثم إن إنكارها لحماية الناس من الدجل قد يجر إلى ما هو شر من الدجل فهو يهدد للهزة بكرامات الأولياء واعتبارها خزعبلات ، ثم إلى إنكار النبوة نفسها واعتبارها دجلاً ، ثم إلى الإلحاد المطلق »

قال الباشا ذلك ونهض مستأذناً ، وودعه رب الدار إلى سيارته بالتجلة

تأمّلت المريضة للشفاء بسرعة بفضل دواء الباشا وتولت مهمتها في المنزل كريمة ، وأنس أهل البيت فيها الدكاء وسحر الخلق والتقوى ، فازدادوا اطمئناناً إليها يوماً بعد يوم

قال البك ذات يوم لقرينته : « ألم تروك الآنسة شيئاً من ماضي حياتها ؟ » قالت السيدة : « لم أفأجمها في ذلك فقد يكون فيه ما يؤلمها » فاستدعاها البك وقال : « نحن لم نعهد عليك سوءاً فما الذي أغضب أخاك عليك ؟ » فأطرقت الفتاة قائلة : « عفا الله عن

حلاً أفضل من حاله فيما لطول حسرته وعذابه وبمد
الشقة التي تنتظره حتى يصعد إلى أرض النعيم»

وأشار إلى ناحية وقال: «أنظري هنا يقبع
الذين كانوا يرتشون، يخونون الأمانة ويفسدون
الخلق، ويمطون الحقوق لغير أربابها ويفوتونها على
أصحابها. وأشار إلى أحدهم فرأيتُه بلطم خده، وبمزق
جلده ويقطع شعره ويكي بدمع سخين ويندب قائلاً:

«ويلى! ويلى! والله لو أوتيت ملء الأرض ذهباً
لاقتديت نفسي به ولو ساعة واحدة مما أنا فيه»

ثم أخذ يبدى وأحسست أننا نصعد، وإذا بي في
حجرتي، قال أبى: سأتركك الآن على أن تصفى لأخيك
مارأيت. إن كلامك قد لا يفيدك ولكن افعلى...

ثم اختفى وعدت إلى نفسي

قالت الآنسة: فانتظرت حتى عاد أخى في المساء
وقصصت عليه ما رأيت. فعبس وبسر، ومن على
إعالتي وإطعماى، وأقسم يمينا غليظة ألا أمكث
في منزله بعد ذلك لحظة واحدة. فجمعت ملباسي
وخرجت حائرة لا أعرف أين أذهب. وإذا بهاتف
يقول: أنظري أمامك، فنظرت فرأيت هالة من
النور، قال الهاتف: تسمى هذا النور، فتيتمته حتى
صرت أمام هذا المنزل، وافتقدت النور فوجدته
على باب سوز الحديقة، ثم سمعت الهاتف يقول:
«ادخلي هنا فهم بحاجة إلى صربية أطفال»

وسكنت الآنسة ثم أطرقت وعيناها تدمعان
مضت الشهور والسنون والآنسة كأنها فرد
من أفراد الأسرة وأحبها كافة من بالزل، حتى
أن إدريس نفسه بدأ يشعر نحوها بحب واحترام
خالصين. ولم يمد يسميها «البلاوى» بل تعلم
أن يقول «السيدة عذرية»

غير المفقى على صدى

من السادة التي تحسونها إنما هو موج في الأثير،
ولكنكم لا تحسون إلا سناً واحداً من الموج
هو المادة

ثم أخذ يبدى. وأحسست أننا نهوى في سرعة
وإذا بنا على أرض جرداء لا نبت فيها ولا شجر،
مظلمة الأجواء، فيها أكواخ عاطلة من كل زينة
ورجال ونساء عليهم سباب الفقر والقنوط، قال أبى:
«نحن بالقرب من سطح الأرض، وإلى هنا يأتي
الذين لم يهتموا في حياتهم الدنيا بغير نفوسهم،
ولم يصب العالم منهم خيراً ولا شراً. إن حواسهم
الروحية ميتة، وكياهم الروحي كئيف» قلت:
«وهل يظنون هكذا؟» قال: «نعم. إلا من بدأ
يشمر بما فوت على نفسه من فرص فيمضه الندم
وتحرقه الحسرة، وهذا المذاب يوقظ من حواسه
الروحية، وينقص من كثافته؛ فيرتفع في بقاء
وعناء إلى عالم النور»

ثم أخذ يبدى، وأحسست أننا نهبط، ولكن
في صعوبة وبطء، فقد كان الجو كثيفاً قائماً وازداد
الجو كثافة وقتاماً، وصار حاراً كريهاً خائفاً لا يطلق
قال أبى: «أنمى النظر» فإذا بي أرى أشباحاً
مروعة، ليس فيها من الصورة الأدمية إلا أثر،
وجوه شوهاء وأطراف طويلة وعيون جاحظة وأجسام
من ظلام، فيها المنبعج حتى التكور والأعجف
حتى العظام. قال أبى: «هنا الذين اجترحوا
السيئات قد رسبوا إلى الحضيض، وحشدوا منماً
ينهش بعضهم بعضاً، ويسخر بعضهم من بعض،
ويوسوس بعضهم إلى بعض وإلى من على شاكلتهم
من أهل الدنيا. أكثرهم لا يؤمن بالله، ويمتقد
أن ليس في الوجود إلا هذا الذى هو فيه. أما من
أحسن منهم بخيسته وبقاره، وأدرك أن في الوجود